**من الانتداب إلى الاستقلال إلى الحرب إلى العاصفة الأخلاقية التي هدمت الهيكل!**

17-12-2022 | 00:00 **المصدر**: "النهار"

**المحامي عبد الحميد الأحدب**

إنما الامم الأخلاق ما بقيت  
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا  
احمد شوقي  
  
  
منذ مئة سنة قام [#لبنان](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d9%84%d8%a8%d9%86%d8%a7%d9%86) على معادلة فيها ثلاثة أعمدة. لم ينشأ كوطن بمساحته وتركيبته بل باوطان وشعوب وأعمدة عدة .  
  
العمود الماروني كان هو الأساس لأن الفرنسيين الذين ركّبوا لبنان وقتها اعتمدوا الطائفة المارونية جزءاً منهم ثم جاء بعدها الشعب السني الرافض كلياً لهذا اللبنان ويريد الإنضمام الى سوريا التي كانت "سنية" في ذلك الوقت! وكانت الطائفة الشيعية فيها رجال وعائلات واقطاع ولكنها كانت على هامش الحياة السياسية الى أن ظهر الإمام موسى الصدر!  
  
الطائفة المارونية منقسمة الى [#الدستور](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a7%d9%84%d8%af%d8%b3%d8%aa%d9%88%d8%b1)يّين والكُتْلويين! ولكن تُرِكت لها نوافذ على الطوائف الأخرى! في الصراع الثنائي الدستوري الكتلوي توصّلت المعادلات الى تركيبة غالبة تجعل الكتلويين هم الأغلبية في انتخابات رئاسية فذهب الدستوريون الى انتخاب مفتي طرابلس الشيخ عبد الحميد كرامي رئيساً للجمهورية، فجنّ جنون المفوض السامي الفرنسي فحلّ البرلمان. الكتلويون لم يكونوا طائفة مغلقة! تتصارع على السلطة مع الحزب الآخر فحسب، بل كانت منفتحة على الإسلام السياسي. فأول رئيس وزراء مسلم سني كان خير الدين الأحدب الذي عيّنه الرئيس [#إميل إده](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d8%a5%d9%85%d9%8a%d9%84+%d8%a5%d8%af%d9%87)!  
  
ولكن إميل إده كان يردد حقيقة مؤلمة ومزعجة وهي أننا لم نبلغ بعد القدرة على حكم انفسنا بل لا بد لنا من وصاية كالوصاية الفرنسية!  
  
الإسلام السياسي السني كان رافضاً للكيان وللدولة اللبنانية ومرتبطاً بالوحدة مع سوريا التي كانت سنية وتغيرت الدول بفعل الحروب فصارت انكلترا هي المنتصرة في الحرب العالمية الثانية و[#فرنسا](https://www.annahar.com/arabic/news/listing?tag=%d9%81%d8%b1%d9%86%d8%b3%d8%a7) مرتبطة بها. فبقيت الوصاية الفرنسية الى أن تحولت الى وصاية انكليزية تابعة لها الوصاية الفرنسية. واستفاد او انتهز الحكماء الوطنيون اللبنانيون ، مسلمين ومسيحيين ، الفرصة للحصول على استقلال لبنان عن الوصاية الفرنسية الإنكليزية ونجحت انكلترا في إزاحة خط الإستقلاليين عن الوصاية فكان استقلال 1943 ولم يكن اميل اده مقتنعاً بأننا صرنا قادرين على أن نحكم انفسنا بأنفسنا فعارض التسرع بالإستقلال، ولكن الكلمة كانت لإنكلترا وربح الوطنيون المتعاونين مع انكلترا "ملهاة" الإستقلال ولكن بقي امر سوريا محسوماً وغير محسوم. ونقف هنا ربما قليلاً فنتأمل كيف كان المسلمون السّنة ما قبل الإستقلال متعلقين بالوحدة مع سوريا ثم نتأمل ما آلت اليه الأمور بعد الإستقلال وبعد الحرب الأهلية وبعد الوصاية السورية على لبنان حين تاب السّنة وعادوا الى لبنان حين ذاقوا مرّ المخابرات العلوية في عقر دارهم. فسوريا متمسكة بلبنان، ولبنان ذهب الى الإستقلال عن سوريا السُّنية في ذلك الوقت. وبقي الأمر متوتراً رغم صيغ التوافق التي كان ينجح فيها رياض الصلح والعراقيل التي يضعها خالد العظم في وجهه! فاز الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح بدولة بدون وصاية، وسرعان ما تدهورت الأمور. بعد سنوات قليلة جرت انتخابات كان التزوير فيها مضْحَكة لأنهم لم يعرفوا كيف يغلّفونه ولو بقشرة توت!  
  
ثم اندلعت اول ثورة سلمية اسلامية مسيحية اسقطت الشيخ بشارة بسبب الفساد في الإدارة الذي كان نقطة في بحر هذه الأيام! انتُخِب كميل شمعون وعمل على تجديد ولايته فاندلعت في آخر ايامه ثورة اسلامية مسيحية، جاء انقلاب وثورة العراق في تموز سنة 1958 فحسمها بتدخل اميركي سافر، فاتفق عبد الناصر مع الأميركيين (الذي كان وقتها زعيم العرب) على فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية.  
  
ولم يكن فؤاد شهاب سياسياً كما الطبقة السياسية، وعسكرياً متسيساً، كان من نوع آخر كان مؤمناً مثقفاً طاهراً طموحه ليس له حدود، والأهم الأهم انه كان على "خلق عظيم" فبنى دولة وأقام مؤسسات تنظم شؤون العباد وأجرى انتخابات نزيهة ووضع قانون انتخابات متوازن ليس فيه كلمات متقاطعة، وبعد سنتين شعر انه اعاد الأمن والسلام فقدم استقالته معتبراً أن مهمته قد انتهت ولكن الطبقة السياسية بكل اتجاهاتها لم تقبل هذه الإستقالة فرفضتها وأجبرته على العودة عن استقالته. فعاد! ولكن حدثاً خطيراً حدث وأدى الى ثغرة في النهج الشهابي هو محاولة الإنقلاب التي قام بها القوميون السوريون! وبالرغم من سقوطها وقمعها الا انها جعلت الشهابية معتمِدة بالدرجة الأولى على الجيش. فؤاد شهاب لم يكن يثق بالسياسيين ويعتبرهم أَكَلَة جبنة ولكنه كان يثق بالعسكريين! فمال الجناح العسكري على الجانب المدني في السلطة وهذه كانت ثغرة النهج الشهابي! ومع العسكر أو رغم العسكر بقي الحكم الشهابي مثالياً في تعاطيه مع المشاكل الإجتماعية وتنظيم الدولة وعلاقاته الدولية ولاسيما الإقليمية في ظروف صعبة كانت تمر بها المنطقة وكان محور الأحداث جمال عبد الناصر، فاستطاع في اجتماع الخيمة ان وضع صيغة توازن اسلامي مسيحي شرقي غربي، سمّاها منح الصلح "قليل من العروبة خير لدفع الكثير منها".  
  
ولم يقبل فؤاد شهاب التجديد وكان يرى انه بعد توقيع "اتفاق القاهرة" صارت الحرب الأهلية على الأبواب وليس له دور في هذه الأجواء، هكذا انتخب البرلمان على صوت زعيم بطل مجزرة مزيارة في زغرتا! اندلعت الحرب الأهلية واستمرت لاهبة حتى الطائف ثم تحولت الميليشيات الى مدنية في الحكم واستمرت الحرب الأهلية باردة! عُلِّقت الحرب الأهلية 27 يوماً بعد انتخاب بشير الجميل ولكن بعد اغتياله عادت الحرب الأهلية على أشدها لاسيما وان مكيافيللي صار يقود الجانب المسيحي.  
  
ولكن بعد انفجار بوسطة عين الرمانة واندلاع الحرب الأهلية حصل تطور خطير في لبنان، غير القتلى والخراب والهجرة انفجرت ازمة اخلاقية خطيرة استحكمت في سياسة الحرب الأهلية.  
وسقطت الأخلاق سقوطاً مروعاً وصار النظام قائماً على اللا أخلاق! وتهاوت كل القيم! وحُلِّل الحرام وحُرِّم الحلال!  
  
لم يكن لبنان بلد الطهارة والنزاهة، الا ايام فؤاد شهاب، بل كان بلد رجال الأعمال وكان الفساد معقولاً وكان مد اليد على اموال الدولة يعاقب احياناً ولا يعاقب حيناً، ولكن كل الفساد كان على القدر الذي يحتمله البلد وعلى القدر الذي يجرؤ عليه الفاسدون ولم يكونوا لا هم الحكام ولا كان الأمر كله بيدهم!  
  
بعد الحرب الأهلية، ولاسيما في السنوات الست الأخيرة صار الحلال حرام والحرام حلال، سقطت وألغيت فعلاً وبالقوة وليس بالقانون كل مؤسسات واجهزة الرقابة ورُفعت الفوائد في المصارف الى 20% وهي في العالم 1% وصدر الأمر الذي يتبرأ منه الآن الجميع، صدر الأمر بنقل الودائع الى المصرف المركزي ومنه الى المشاريع الوهمية والى حرية النافذين الحاكمين في الإنفاق على هواهم! وأخذت تحصل العجائب! وسقط البلد في انهيار تام وسقطت كل المؤسسات بدءاً بالقضاء الى التعليم الى التطبيب والإستشفاء الى الكهرباء الى... الى...  
واندلعت ثورة ونزل الملايين الى الشوارع ثم تمخض الجبل فولد فأراً، ازمة الأخلاق استحكمت!  
أجريت انتخابات للنواب والوزراء الذين سببوا انهيار الدولة وفرّطوا بالمال العام فعاد الناس وانتخبوهم، هم انفسهم واضافوا اليهم 13 نائباً "تعتيرياً" كلهم في صف الحضانة، متفرقين غير متفاهمين، كلٌّ يغني على ليلاه!!! بل ان إحداهنّ التي كانت ذات يوم من الثوار انقلبت لتصبّ لعناتها على مرشح المعارضة!  
  
من الإنتداب الى فرحة الإستقلال الى الحرب الأهلية الى الأزمة الأخلاقية العاصفة بكل شيء! والتي هي سبب الإنهيار الكبير.  
  
نتذكر اميل اده حين قال أننا لسنا مهيئين بعد للإستقلال ونحن بحاجة الى وصاية لكي نصبح جاهزين، استعجلنا، فكانت الحرب الأهلية وعصفت ازمة الأخلاق التي لن تترك في وجهها ولا بارقة أمل!  
  
اذا عُرف السبب بَطُل العجب! ازمة الأخلاق هي التي ولّدت هذا الإنهيار الكبير.